

1104 - الغنيمة الثانية (الفصل الثالث)



الخلاص (3)

في الحلقة السابقة أوضحت تطور فكري، من واقع الممارسة والنمو، ومن ثم ما طرأ على المتن الشعري في هذه القصيدة بالذات، الأمر الذي لم يحدث في غيرها تقريبا أبدا، وقد بينت كيف أن رفضي أن أدعى (بل أن أفخر) أنني "زرع شيطان"، جاء نتيجة ما وصلني بعد حذة بصيرتي أن هذا ليس هو طريق النمو السوي، وقد تأكد لي ذلك من خلال قراءتي النقدية لرواية العطر لزوسكند من ناحية، ومن خبرتي المتراكمة عبر حوالى الثلاثين سنة التالية لكتابة أصل المتن باكرا، وقد غامرت وعدلت المتن بما وصلني مؤخرا، مع إثبات النص الأول، وبررت ذلك بأنه لما كان هذا الشرح إنما يهدف إلى توظيف المتن لشرح أبعاد العلاج النفسي، فماذا يضيرني من تحديثه حتى على حساب شاعريته؟

قلت في الحلقة السابقة رفضا لفكرة "أنا زرع شيطان" ما نصّه:

. . . .
. . . .

ثالثا: إن أى استغناء عن الناس (ربما بدءا بالأم) يستحيل أن يكون استغناء مطلقا، إنه لا يعدو أن يكون مظهرا دفاعيا مؤقتا على أحسن الفروض، أما إذا عمادى فهو الذبول، أو التأله أو الجنون الانسحابى أو المتفسخ

رابعاً: إن العلاقة العلاجية في العلاج النفسي تكاد تدور بـدائية ونهاية حول محاولة كسر هذا الوهم (الاستغناء حتى الإنسحاب) دون استبداله بالاعتمادية الرضيعية التي ربما تُقبل كمرحلة عابرة قصيرة تماماً لازمة أحياناً لإعادة البداية (الولادة)

خامساً: إن هذا التراوح بين حركية النمو ما بين "الاستقلال"، وضرورة "قبول الاحتياج" هو من ضمن "برنامج الخروج والدخول" الذي اشرنا إليه سابقاً في أكثر من موضع.

وبعد

فإنني سوف أخص هذه الحلقة الأخيرة لشرح متن هذه القصيدة بما يفيد توضيح النقلة في المعالج والمفاهيم بما يفيد العلاج النفسي، مع التركيز في هذه النشرة على دلالة ما وراء تغيير المتن، من واقع الخبرة المهنية والنمو الذاتي، حتى ولو كان ذلك على حساب الشاعرية، الأمر الذي نفاه كثيرون ممن قرأوا النص القديم مقابل النص الجديد، حتى رأى بعضهم أن الجديد أفضل (شاعرية)، في حين قال آخرون أن كلامها شعرٌ مرحلته، وأن التغيير قديم شعراً آخر، وليس شعراً أقل، ليكن، فليست هذه هي القضية الآن. أتصور أن النقلة التي حدثت هي مقبولة من حيث المبدأ، وبالذات لما تسمح به من إضافات مهنية محددة مفيدة:

أولاً: أنه مادام الطبيب النفسي (والمعالج النفسي) هو الأداة الأولى في العلاج، فإن رصد تغيره (ولو من خلال مجالات أخرى) مهم نظراً لخطم تأثيره على مسار العلاج.

ثانياً: إن التغيير الذي حدث في المتن له دلالة تدعو لمناقشة الموقف القديم مقارنة بالموقف الجديد، وتبريرات التغيير من وجهة نظر مسار العلاج النفسي

والآن إلى شرح المتن المقارن:

1973 - 1974	حول منتصف العقد 2001-2010
- 2 - - علشان يامه مش على بالك، أنا حاحكيلك: أنا زرع شطاني، ولا حد ف يوم جه وزاني ولا شفت ازاي أو كام أو مين ولا حد عرف أنا باعمل إيه، أو ليه أو فين.	- 2 - - علشان يامه مش على بالك، أنا حاحكيلك: أنا خدت الدنيا معاكى، بينكى، من ورا ضهرك، مش زرع شطاني، مع إن ماحدش ورائي، ولا حد عرف أنا باعمل إيه، أو ليه أو فين.

ماذا يعني هذا التراجع عن الفخر بالجهود المستقلة لتشكيل الذات ودفع نحوها؟

في العلاج، كما في النمو، لا أحد يعرف ماذا تعطي الأم، أو ماذا يعطي المعالج للمريض تحديداً، وفي نفس الوقت فإن مجرد الالتقاء المنتظم يجعل احتمال الأخذ المتبادل وارد دون تحديد، اللقاء العلاجي هو فرصة لتواصل عبر عملية متعددة المستويات، لا يظهر منها إلا الانتظام في الالتقاء حيث يغلب ظهور "الكلام" كوسيلة أولى، تبدو وحيدة، للتواصل، لكن على مسار النمو خاصة في المراحل الأولى: يتم التواصل بأى لغة وكل لغة عبر أكثر من قناة تواصل. الطفل بأخذ دون اسئذان كل ما يستطيع أن يأخذه، وفي مرحلة معينة من العلاج يكون الكلام والتفسير الكلامي هو أضعف ما يستطيع تلقيه، برغم أنه أظهره بحد ذلك أكثر في العلاج الجمعي حيث تتعدد الرسائل وتتعدد قنوات التواصل في شبيكية أكثر تقاطعا وتداخلا.

تعبير "انا خدت الدنيا معاكى بيكى من ورا ضهرك" يمكن أن ينطبق على إعادة تفسيرات نتائج التحليل النفسي الكلاسيكي الفرويدي، حيث زعم بعض محبيه (وأيضاً بعض ميغضيه) أن المريض كان يشفى بالرغم من التداعي الحر وليس بسببه، بالرغم من التفسير والتأويل التحليلي وليس بسببه أو على الأقل بالإضافة إليه (أحياناً)، هذا النوع من الأخذ يحدث تلقائياً على مستوى آخر من الوعي، ليس بالضرورة "اللاشعور"، لكنه مستوى آخر والسلام "من ورا ضهرك"، وايضا من وراء ظهر المتلقى نفسه.

المقارنة بين "ولا حد ف يوم جه ورا في" وبين: "مع إن ما حدش ورا في" لها دلالتها التي أفضل الا أطيل في شرحها، فالتعبير الأول هو نفي مطلق، والتعبير الثاني احتمالي أكثر.

حول منتصف العقد 2001-2010	1973-1974
- 4 -	- 4 -
.....
.....
أنا حابقي "أنا".	أنا حابقي "أنا".
إزاي؟	إزاي؟
ما اعرفش.	ما اعرفش.
أنا عارف اني حاكون، وأصبر،	أنا لازم "أكون" و
ربنا ستار، ربنا دا كبير.	"أعيش"
بكره تشوفي،	
لأ دلوقتي	
غصبين عنهم.	غصبين عنهم.
غصبين عني.	غصبين عني.
غصبين عنك.	غصبين عنك.

نلاحظ أن الجزء الأول من هذا المقطع لم يتغير، وقد يكون هذا دليلاً على أن كل ما نعرفه عن عملية التغيير هو غامض بشكل أو بآخر، وإن كانت نتيجة التغيير تكون أوضح عادة، مسألة "أنا حابقي أنا" ناقشتها طويلاً وكثيراً قبل ذلك، حين حذرت من المبالغة في ما يسمى "البحث عن الذات"، لأؤكد

على أفضلية التركيز على عملية "تخليق الذات"، حتى على حساب "تحقيق الذات"، لا أحد عنده ذات مخبأة وعليه أن يبحث عنها، ولا أحد عنده مشروع ثابت للذات يريد تحقيقه، الإنسان، أى إنسان هو مشروع يحمل برامج متنوعة من كل تاريخ أسرته، وتاريخ نوعه، وتاريخ الحياة، وتستمر عملية تخليق الذات إلى ما لا يبدو له نهاية (حتى الموت وصلنى مؤخرا أنه أزمة نمو، وولادة جديدة)، وبالتالي يمكن قراءة هذا النص "أنا حابقي أنا" باعتبار أنه يعنى أنه فى لحظة بذاتها "أكون أنا" إلى ما هو "أنا" (ايضا أكرر: بعيدا عن الوعى الظاهر بشكل ما).

الاختلاف الذى طرأ فى التحديث هنا مهم، وهو يرتبط بفكرى الأحدث فالأحدث الذى شرحته تفصيلا فى أطروحتى "الحرية والإبداع" Link حيث بينت أن مقولة شكسبير (هملت) "أكون أو لا أكون" هى مجرد مرحلة لا يجوز تقديسها أو الوقوف عندها، وأن حركية النمو تضعنا أمام إشكالية أكثر حيوية ووعداً، وهى إشكالية "أكون أم أصير" (التي هى بدورها خطوة إلى أصير أم أظفر).

الفرق بين الأصل "أنا لازم أكون وأعيش"، وبين التحديث "أنا عارف إني حاكون وأصير"، هو فرق دقيق ومهم لأنه يبين أن حتمية الكينونة "أنا لازم" هى أقرب إلى مقولة هملت، أما مواكبة ومسيرة النمو (التطور) "أنا عارف إني حاكون وأصير" فهى أقرب إلى إعلان الاعتراف بسلسلة حركية النمو والتطور ما لم يعقها عائق.

حضور الوعى الكونى هنا (إلى وجه الحق تعالى) هو جزء جوهرى فى الفروق الثقافية التى أعاود تناولها بطريقة أو بأخرى كلما سنحت الفرصة، مثلا تناولتها عدة مرات فى نشرات الإشراف على العلاج النفسى؟؟ نشرة 2009-7-26 (ياه...!! دى طلعت صعبة بشكل، ولكن... "فروض وتجميع") أو مع شرح بعض تفاعلات وتفسيرات العلاج الجمعى انطلاقا مما اسميته الوعى الجمعى Collective Consciousness، وهى مسألة جوهرية بالنسبة لى، وأنا أفضل فى هذا المقام أن أوّجّل الحديث عنها مكتفيا بإثبات المبدأ، محيلا من يشاء مؤقتا إلى أطروحتى على الباور بوينت p.p عن الغريزة الهارمونية المتصاعدة (الغريزة الإمانية).

تكفى هنا التذكرة بأن العلاقات البشرية، حتى تكون بشرية، تحتاج إلى موصل جيد من الوعى الجمعى (البشر) فالوعى الكونى (إلى وجه الحق تعالى)، ليتم التعامل بين الوحدات البشرية بكفاءة تطويرية، وأن هذه ليست سوى برامج بيولوجية فيزيقية وليست نظريات أو آراء تجريدية ميتافيزيقية، ومجد هنا فى المتن مجرد إشارة إلى أن حركية النمو تحتاج إلى ائتناس بهذا وذاك "ربنا ستار" كما تحتاج إلى إحاطة تضم هذا/إلى/ذاك/إلى هؤلاء/ إليه (ربنا دا كبير).

هذا اليقين "هو حركة فى اتجاه قادم" (بكره تشوفى) لكن المتن الجديد يتحوط ضد التأجيل، وهو يستدرك بسرعة "لأ دلوقتى"،

يرجعنا ذلك إلى حدس اللحظة (باشلار) من جهة وإلى مبدأ "هنا والآن" الذي هو جوهر وعمود العلاج الجمعي بوجه خاص، إذ مهما كان اليقين بالحركة، وبأولية ما هو عمليته Process على المحتوى (= أولوية الدال عن المدلول) وبالمآل المفتوح، فإننا لا نملك إلا "الآن" والـ "هنا"، والتركيز على ذلك واليقين به هو ما يجعلنا نطمئن إلى سلامة سير قوانين البرامج التي تحكم هذه اللحظة في اتجاه السهم الضام.

أما بقية المقطع فلم يحدث فيه تغيير، وتعبيرات الحتم المتجدد للجميع هنا (غصين عنه، غصين عنى، غصين عنك) لا تشير إلى أن حركية النمو تحدث قسراً أو تعسفاً، وإنما هي تشير إلى الإصرار على تجاوز المعوقات، والتشوهات والدفاعات (الميكانيزمات) التي تعوق النمو والتطور، حتى التحليل النفسى الكلاسي هو ليس حلاً لمشاكل أو فكا لعقد، بقدر ما هو إزالة إعاقه unblocking

حول منتصف العقد 2001-2010	1973-1974
- 4 -	- 4 -
.....
.....
حا شعر بالنبضة وبالرعدة، من أى كلام، وحاعيش !!! = والله يا بنى مختاره معاك. ما تعيش. مين حايشك بس؟	حا شعر بالنبضة وبالرعدة، من أى كلام، وحاعيش !!! = والله يا بنى مختاره معاك. ما تعيش. مين حايشك بس؟
- 5 -	- 5 -
<u>- ما حايشيشي</u> <u>ما أنا عايش أهه،</u> <u>بس ادعى لي،</u> <u>أنا كنت "خلاص"،</u> <u>بس بفضلك رينا قالها،</u> <u>ولقيت لي "خلاص".</u> <u>وعملت منى اللي أنا هوه،</u> <u>وياجدد روجي من جوه،</u> <u>طالع بره، راجع جوي</u> <u>وياغنى مع نفسى بنفسى</u> <u>في الناس، بالناس.</u>	وضحكت عليكو وعشت أهه أنا أهه.. أنا أهه أنا أهه دلوقتي الآن حالا أنا أهه إزاي دا حصل؟ أنا ما اعرفش أنا أهه وخلص، وياغنى مع نفسى بنفسى ولأقيتلى خلاص ولأقيت الحب وكل الناس

المقطع الأول هنا لم يحدث فيه تغيير وهو يعرض لقضية مهمة في العلاج (كما هي في الحياة) إذ هو يرسم الحياة نابضة حاضرة بأبسط، وأروع وأعمق ما هي، (هل تذكر؟ الحياة هي الحياة أحلى حاجة فيها هيا إني عايش) (نشرة 6-16-2010 "الحياة 1 من 6")، (نشرة 6-23-2010 "الحياة 2 من 6")، بما في ذلك إحياء "أى كلام" بأن يحل فيه المعنى، و"أى كلام" هنا ليس مساوياً لأى كلام الذى نعى به الرطبان الأجوف، المفتقر إلى الهدف، ولكن المقصود به هنا هو أن أبسط الكلام، وحتى بدون كلام، يمكن أن يحمل أهم المعاني

الحياة هي "الحياة" إذن قبل وبعد الوعي بأنها "الحياة"، لكن شريطة ألا تكون قد تشوهت حتى اختبأت وراء ما يشبه الحياة بلا حياة.

أحيانا ألقبها في وجه المريض (ونفسي طبعاً) عارية تماماً حين أنبئه - ونفسي- أن "القضية الحقيقية الأولى بالمواجهة هي اختيارنا المبدئي: **أن نعيش أم لا**"، (يا نعيش يا نموت)، ونحن لا نعي بذلك الموت بمعنى إنهاء الحياة الجسدية، وإنما نعي: إما أن تمتلىء بالحياة الحياة أو نرضى بأن نصبح مجرد ناقلات جينيات لمن يستطيع أن يعيش-بعدنا- بشراً يوماً ما،

الأم في هذا المقطع لا تعترض على إلحاح ابنها على أن يعيش الحياة، فهي نفسها تعيش فعلاً الحياة دون أن تعلن أو تعي ذلك، دون أن تنقل القضية إلى مسألة معقلنة تحتل بؤرة الوعي فتختفى الحياة، فهي تتعجب من تساؤلات الابن وإصراره على كشف ما هو طبيعي بتعبيرات وألفاظ غير طبيعية، فهي حين تقول له (في المتن القديم/الجديد فهو لم يتغير) "**ما تعيش، مين حايشك بس**"، لا تستهين بتساؤلاته بقدر ما تتعجب منها ولها.

الاختلاف الذي طرأ على هذه الفقرة بعد ذلك له دلالاته برغم أنه ليس اختلافاً جوهرياً، ذلك أن تعبير "**وضحكت عليك وعتت أمة، أنا أمة أمة**" يبدو وكأنه سرقة لما هو "حياة" من وراء ما -أو من- يحول دون ذلك، ولكن مع التحديث الذي حدث في المتن انقلبت المسألة إلى حفز التحدى "**ماحايشنيش**"، كما انقلب "**وعتت أمة**" إلى "**أنا عايش أمة**"، ذلك أنه أحيانا يكون قرار الحياة "أن أعيش" هو مجرد كشف عن أبسط قواعدها ومنتهى حضورها دون أى جهد إضافي واع للبحث "عن الذات"، أو حتى تخليق الحياة في الذات، (ولعل الحيوانات أسبق منا في ذلك).

المتن القديم يصر على التنبيه على أن ممارسة الحياة تحدث دون ضرورة الوعي بها، وهو متن جيد في ذاته ولم يكن في حاجة أن ينسخه المتن الجديد، لكنني خفت التزيد والتكثيف لوقارنت بينه وبين التحديث تفصيلاً وسوف أكتفى بالتركيز على التحديث، خاصة وقد حضر فيه "الدعاء" الذي اعتبره الوصلة (الإرادية أحيانا) بين الوعي الشخصي والوعي الكوني (إلى وجه الحق تعالى) ويتم التعرف على موضوعيته هنا أبسط وأقرب حيث أن الوصلة كانت من خلال دعاء هذه الأم السلسلة "العائشة" بلا فذلكة "**بس ادعى لي**"، فطلب الدعاء هنا بدا لي تأكيداً لهذه الوصلة،

ثم تأتي النقلة من "**أنا أمة وخلص**" إلى "**أنا كنت خلاص**" و**ثم إضافة "بس بفضل ربنا قالها"**، لتؤكد نفس الوصلة، التي تنقلنا مباشرة إلى "**ولقيت لي خلاص**". "خلص" الأولى هي نهاية، و"خلص" الثانية هي بداية إذ لا بد لمرحلة أن تنتهي حتى تبدأ أخرى، وهنا تحضر الأم بصورتها الأصيلة لتحتوي الوجود النامي من جديد في رحم السماح الحضانة، تحضر حضورها الذي لا ينفصل عن الوعي الكوني (مروراً بالوعي الجمعي) مرة أخرى: "**بس بفضل ربنا قالها**"،

التركيز على الرعاية البشرية الوالدية فقط دون وصلة "بعديّة" يبدو مخالفا للطبيعة الإنسانية من منظور معين.

النقلة من "انا كنت خلاص" إلى "ولقيت لي خلاص" فيها كل أبعاد إعادة الولادة.

حدثت إضافة محدودة لن أشير إليها هنا، فليكتشفها القارئ بنفسه ليكتمل المقطع كله مشيرا إلى برنامج "الدخول والخروج" على مستوى الذات وأيضا على مستوى الآخر (الآخرين) "في الناس بالناس".

العلاج النفسي الفردي يركز أكثر على مستوى الذات في حضور آخر (يقابل الأم) أما العلاج الجمعي فهو ينتقل إلى نفس الحركية "الدخول والخروج" ولكن على مستوى الوعي الجمعي بالناس في الناس.

حول منتصف العقد 2001-2010	1973 - 1974
- 6 -	- 6 -
.....
.....
عايز؟	عايز؟
دور واتخايق.	دوّر واتخايق.
<u>وساعتها حاتلقى عمار في عمار.</u>	وساعتها حاتلقى الحب
وحا تعرف معنى لأى كلام،	وحا تعرف معنى لأى كلام
"وتكون"، و"تعيش"،	"وتكون"، و"تعيش"،
وتغني الغنيوه الحلوه.	وتغني الغنوة الحلوه.
<u>ايه؟</u>	"ايه؟!" ماانت عارفها،
<u>ماانت عارفها،</u>	طب بص:
<u>جواك، براك، ماليه الدنيا،</u>	تلقاها جواك
<u>المعني/الناس/ثانية بثانية</u>	
<u>وخلص!!</u>	
<u>لاه!</u>	
<u>لسه شوئة</u>	

الختام جاء خطابا نقديا، وحفزاً إلى السعي، وعوده إلى التأكيد أن المسألة يمكن أن تكون شديدة البساطة "وحا تعرف معنى لأى كلام" وفي نفس الوقت غائرة الجوهر "وتكون، وتعيش".

أما مقولة "وتغني الغنيوة الحلوة" فهي تشير أكثر في المتن الأول إلى التصالح (الهارموني) الداخلي مع الذات، لكن التحديث جاء ينبهنا نقداً إلى انها ليست قاصرة على ذلك، إذ لو أنها اقتصرمت على أن "الغنوة" هي "جواك" فنحن مازلنا عند مستوى "أكون" و"تحقيق الذات" بعد البحث عنها وكلام من هذا، أما التعديل فقد نقلنا إلى الامتداد في حركية الهارموني الأوسع التي تتكشف لنا عبر رحلة النمو (العلاج) "ما انت عارفها"، "جواك - براك، ماليه الدنيا"

ثم يأتي التفصيل ليؤكد على الأهمية الجوهرية لحضور المعنى فيما هو علاج، وهو من أولويات العلاج المعرف، وأيضاً العلاج بالمعنى Logo therapy ، وفي هذا ما يدعم ما سبق الإشارة إليه من ان الحياة لا تكون حياة إلا بتعمير الدنيا بما هي ويناسها.

ثم يركز المتن الجديد على "حدس اللحظة" في نفس الوقت الذي يؤكد فيه أنه لا يتم نمو بعيداً عن الناس "المعنى/الناس/ثانية بثانية"

إذا تم هذا وتحقق لأى منا على هذا المستوى فهل تكون رحلته قد نجحت وأنه وصل "وخلص"؟

الاستدراك الأخير يرد على ذلك بالنفى "لأه"،

ثم تقفل القصيدة أنه "لسه شوية".

وهذه الشوية تظل نشطة مفتوحة أبداً